ما الأضرار التي تلحق بالمجتمع عند التعامل بالربا ؟

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 27 مايو 2019

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

تحدثنا خلال المقالين السابقين عن الأضرار التي يجنيها الفرد – سواء الدائن أو المدين – من التعامل بالربا، دعونا اليوم نتعرف على الأضرار التي تلحق بالمجتمع المرابي.

ثالثًا: المجتمع؛ وهو أنا وأنت، الدائن والمدين، ومعطي الربا وآخذه، وكل من يعيش في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، فكيف يمكن أن يتأثر المجتمع من تفشي داء الربا ؟

البطالة وقتل المواهب؛ يمكننا هنا أن نسأل أيهما أفضل وأضمن للربح، إنشاء وفتح المصانع والمشاريع التجارية أو منح القروض الربوية للأفراد ؟ نضمن أن الإجابة ستكون منح القروض الربوية وانتظار الربح المضاعف، فمن يرفض الربح السريع والمضمون في مقابل إنشاء مصنع أو مشروع ربما ينجح وربما يفشل.

حسنٌ، إن لم يتفاعل أصحاب الأموال مع المجتمع ولم يقيموا المنشآت الصناعية والتجارية، ولم يفكروا في إقامة المشاريع الاقتصادية التي

يمكن أن تنمي المجتمع وأفراد المجتمع، ترى ماذا يمكن أن يحدث للمجتمع وأفراده ؟ ببساطة فإن المجتمع لا يعمل، إذ إنه لا توجد به منشآت صناعية أو تجارية، وهذا يعني أنه لا توجد فرص للعمل للشباب من الجنسين، بمعنى آخر فإنه ستزداد البطالة بين هذه الفئة من الناس، ومن ثم تصبح مشكلة اجتماعية. وتشير كل الدراسات التي عملت على مشكلة البطالة أنها ذات تأثيرات عديدة على الفرد والمجتمع وكذلك الدولة، فمن الجوانب التي يتأثر بها الفرد هي الجوانب المتعلقة بالصحة النفسية إذ إنه يمكن أن يصاب بالاكتئاب وتدني اعتبار الذات وغيرها من المشاكل النفسية، فيا ترى ماذا ستكون ردة فعل مثل هذا الجيل عندما يعيشون في مثل هذه الظروف، ألا يمكن أن يؤدي ذلك إلى انخفاض أواصر الروابط التي يحملها الناس تجاه المؤسسات الرسمية والأنظمة والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع؟ فإن حدث ذلك فإلى أين يمكن أن يصلنا ذلك ؟

التفاوت الطبقي: الطبقات المجتمعية حقيقة ولا يمكن انكارها مهما حاولت الدول والأيديولوجيات الفكرية أن تخفيها، كما حاول الفكر الشيوعي وغيره من ذلك، فهي فطرة من حياة المجتمعات والإنسان، لذلك لم ينكرها الإسلام وإنما أبرزها بوضوح وذلك في الكثير من الآيات الكريمة، فقال في سورة النحل – الآية 71 (واللّه فضل بعضكم على بعض في الرزق)، وفي سورة الإسراء – الآية 21 (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)، وفي سورة الزخرف – الآية 32 (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)، فهذه الآيات ونحوها تقرر بوضوح حقيقة واقعة وهي أن اللّه سبحانه قد فضل الناس بعضهم على بعض بشتى أنواع التفضيل؛ فضلهم بالرزق فمنهم الفقير ومنهم الغني، وفضلهم بالجسم فمنهم القوي ومنهم الضعيف، وفضلهم بالعقل فمنهم العالم ومنهم الجاهل، وفضلهم بالشكل فمنهم الجميل ومنهم القبيح، وفضلهم بالدين فمنهم مؤمن ومنهم كافر، وفضلهم بالأخلاق فمنهم حسن الخلق ومنهم سيئ الخلق.

ولكن اللّه سبحانه وتعالى لم يترك الأمر هكذا من غير ضوابط ومن غير حكمة، فليس من الحكمة أن رب الحكمة يترك مثل هذه الأمور هكذا وإنما يفعلها ويقرها بحكمة بالغة فقد قال تعالى في سورة الأنعام – الآية 165 (ليبلوكم فيما آتاكم)، فهذا يعني أن هذا التفاوت هو ابتلاء للناس وليس من قبيل التفضيل لمجرد التمتع بالأمر، فلو لم يكن هناك تفاوت طبقي بطريقة أو بأخرى ولو كان الناس كلهم في مستوى واحد من الرزق لما احتاج أحدٌ إلى أحد، ولم يعد ثمة مسوغ للدعوة لفعل الخيرات، وعمل الصالحات لما كان هناك اتصال بين فئات المجتمع، لعاش كل شخص لنفسه فقط.

ولكن على الرغم من أن التفاوت الطبقي جزء واقعي وحقيقي من الحياة إلا أن التعامل بالربا يزيد هذه الهوة بين الناس ويوسعها ويخلق بين الطبقات فراغا كبيرا يصعب ردمه، فيزيد الغني غنى والفقير فقرًا، وخاصة إن اختفت الطبقة الوسطى الموجودة عادة بين الطبقتين، فيصبح المجتمع طبقتين

فقط أغنياء يملكون كل شيء وفقراء لا يملكون شيئا، ترى كيف يمكن أن يعيش مثل هذا المجتمع ؟

انتشار الظلم والأنانية؛ يصاحب التفاوت الطبقي انتشار الأنانية وخاصة بين أفراد الطبقة الغنية، فهم يشعرون أنهم في طبقة تختلف عن باقي أفراد المجتمع، أو ربما ميزهم اللّه سبحانه وتعالى من دون غيرهم بالأفضلية على باقي البشر، كما أوردنا سابقًا قصة صاحب الجنتين التي وردت في سورة الكهف، وليتها تقف الأنانية عند هذا المستوى وإنما يقول علماء النفس إن هذه النزعة والأنانية تنتقل في النفوس إلى مرحلة الظلم، وخاصة إن كان الوازع الديني ضعيفا في النفوس، فالثراء غير المحكم بالأنظمة والقوانين الربانية تتحول إلى ظلم لا يمكن التحكم فيه، وهذه إحدى أهم الآفات التي تهدد المجتمعات، وهذا يسببه الربا.

انتشار الكراهية؛ ويمكن أن تكون محصلة كل تلك الأخلاقيات السابقة الذكر هي الكراهية، فعندما يستشري الظلم والأنانية والتفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع وغيرها من الأخلاقيات السيئة غير المحكمة بقوانين الإحسان والأنظمة الربانية فإنه حتمًا سيستشري في المجتمع الكراهية، وهذا منطق لا يمكن تجاهله، وكل هذه الآفات تتراكم في المجتمع، وعندما تبلغ الذروة فإنه حتمًا سيتفجر الأفراد وتتفجر المجتمعات.

الخلاصة: كل هذه السلوكيات وهذه الأمور تفسد العلاقة الأخوية بين أفراد المجتمع، ومن ثم يتحول المجتمع الذي من المفروض أنه يبنى على الحب والمودة والأخوة، وتلك المبادئ التي حاول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يزرعها في المجتمع المسلم في المدينة المنورة منذ اللحظات الأولى إلى مجتمع مفكك تستشري فيه جميع الأمراض الوبائية والأخلاقية، وهذا المجتمع لا ينتمي إلى الشريعة الإسلامية ولا إلى الفكر الإسلامي لا من قريب ولا من بعيد.